# الصوفية والقرآن

# جدليّة الذوق والتأويل

**د. عبدالقادر النفاتي**

**جامعة الزيتونة تونس**

تعتبر مسألة فهم الصوفية للقرآن الكريم وتأويلهم له مسألة مهمّة حقيقة بالبحث والتأمّل، ولا ريب أن هذا يتبدّى من خلال جملة الاعتبارات القيّمة التي تحفّزنا على تناول الموضوع، ويتّضح أيضا من خلال التساؤلات الملحّة التي تقتضي الإجابة والتوضيح، ومن ذلك:

- إن محاولة معرفة مكانة القرآن الكريم عند الصوفيّة وكيفيّة فهمهم له ليشكّل مطمحا مهمّا، ومراما ملحّا في زمننا المعاصر، خصوصا وأن الصور النمطيّة المشوّهة والانتقادات الموجّهة للقوم في هذا الصدد هي كثيرة ومتشعّبة تشعّبا يحتاج فيه الأمر إلى توضيح وبيان لازمين من الباحثين عموما ومن أهل الشأن خصوصا.
- يطرح السؤال التالي ذاته كذلك في هذا المقام: لماذا يتفرّد الصوفية عن غيرهم في فهم القرآن؟ وما هي أهمّ الإضافات التي يقدّمونها في هذا المستوى؟ ولماذا تلقى إسهاماتهم الذوقيّة وفهومهم القرآنية عادة الصدّ والانتقاد باعتبارها مخالفة للواقع والمعقول في نظر علماء الأوراق والرسوم؟

- هل أن الصوفيّة على وعي تامّ وكامل أن ما يأتون به من فهوم وتأويلات وحفريات في أعماق الدلالة، هو مخالف في نظر علماء الرسوم لمنطق العقل ومباين للمعتاد مباينة تقتضي النفور والتهجين، أم أنّهم يدركون ذلك ولكنّهم ماضون في منهاجهم تمسّكا بالحقيقة والتزاما بأنوار اليقين وأشعّة الفهم المنبجسة من أعماق التجربة والذوق؟
- إن التساؤل عن آلية فهم القرآن الكريم عند الصوفية وكيفيّة استنطاق معانيه يشكّل بدوره اعتبارا مهمّا ولازما منهجيّا ضروريا لمعرفة الكيفيّة المعتمدة في التفكير والفهم والتأويل، ومن ثمّة إدراك النتائج والوعي بدلالاتها المختلفة ومغازيها العميقة ؟
- ممّا يقتضي الإجابة أيضا السؤال التالي: ما الذي يسوّغ للصوفية أن يضمّنوا العبارة القرآنية ما شاء لهم من المعاني، وما تراءى لهم من الكشوفات والإلهامات ؟ وما هو السّند أو المرجعيّة الفكريّة أو الذوقيّة التي تخوّل لهم رصد المعاني الخفيّة وتتبّع الدلالات الضمنيّة والإيحاءات المختلفة في اللفظة القرآنية ؟
- ثمّ من جهة أخرى ألا يمكن أن يلتقي علماء الرسوم وأنصار العقل والمنطق بالصوفية وأهل الذوق في فهم المعاني وتأويل الدلالات خاصّة إذا ما تنازل كلاهما للآخر، وحاول الوقوف على آلية الفهم وأسلوب الغوص في أعماق الألفاظ من أجل التفسير وفهم الدلالة من جهة، ومن أجل الوقوف على المعاني الباطنة والإيحاءات والضمنيات والصمتيات التي تواريها الكلمات من جهة أخرى، وبذلك نتفادى مزالق الصدام وسوء الفهم والتراشق بتهم الزيغ والضلال ؟

- من الأسئلة التي تحتّم أو تفرض ذاتها أيضا في هذا المقام هو: أيّ فضل وأيّ دور يمكن أن يقوم به الفهم الصوفي للقرآن الكريم في إطار توسعة أفق الفهم بدءا وفي إطار الانفتاح على الآفاق المعرفيّة الأخرى أيضا، وتطوير علوم العصر، فضلا عن حلّ القضايا المتشعّبة ؟

## في تاريخ التأويل الصوفي للقرآن الكريم:

إنّه لمن المهمّ بدءا أن نشير إلى أن الضرورة المنهجيّة تقتضي رصد بدايات ظهور التأويل الصوفي للقرآن الكريم وتتبّع مراحل تطوّره وأبرز المحطّات التي مرّ بها، فضلا عن التلوّنات المختلفة التي صبغت مساره التاريخي العام، وذلك للإحاطة بالمسألة إحاطة شافية، وللكشف في ذات الوقت عن مدى إسهام التأويل الصوفي في توسعة أفق الفهم وتطوير علوم العصر وإيجاد الحلول والفهوم المناسبة للقضايا المختلفة.

ضمن هذا الأفق إذن حريّ بنا أن نشير إلى أن التأويل الصوفي للقرآن الكريم قد نشأ وترعرع في إطار حركة التفسير بالرأي التي عملت على تفهّم القرآن الكريم واستنطاق معانيه وتأويله اعتمادا على العقل وما تنتجه البصيرة من فهوم، وقد انطلقت حركة التفسير بالرأي عموما منذ نزول القرآن الكريم ذاته بوصفه الكتاب المعجز والمبهر الذي شدّ إليه فصحاء اللغة وفطاحلة البيان وجهابذة التعبير، والذي تحدّى العرب في أبرز فنّ هم بارعون فيه، قال تعالى: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[1]، وقال عز وجلّ أيضا متدرّجا في نمط التحدّي: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ

[1] الإسراء: 88

سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"[1]، وقال العزيز القدير أيضا في تحدّ أكبر لأرباب اللغة والبيان: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"[2].

كما أن القرآن ذاته كان يدعو إلى التأمّل والتدبّر والتفكّر والاعتبار والفهم كما ورد في قوله تعالى: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ"[3]، وفي قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"[4]، وفي قوله عز وجلّ: "فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ"[5].

إضافة إلى ذلك فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يفسّر لأصحابه ما أشكل عليهم ويوضّح ما صعب فهمه على اعتبار أن القرآن الكريم كان يحوي المجمل والمشكل والمتشابه، والحقيقة والمجاز والتصريح والكناية والإيجاز والإطناب وغير ذلك من الأمور التي تقتضي البيان والتوضيح، وكان هذا في حدّ ذاته داعيا أو عاملا من عوامل التشجيع على الاشتغال بالقرآن الكريم والحثّ على استكناه حقائقه وتفهّم دلالاته ومغازيه منذ نزوله على فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام وشغف الصحابة

[1] هود: 14
[2] البقرة: 23، 24
[3] الغاشية: 17-21
[4] محمد: 24
[5] الحشر: 2

رضي الله عنهم[1] وولهم به. ولعلّ ما يؤكّد هذا الطرح ذلك الدعاء المأثور عن النبيّ عليه الصلاة والسلام لابن عباس حينما قال له: "اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وعلّمه التأويل"[2]، وقد علّق ابن حجر على هذا الحديث شارحا إيّاه فقال: "وهذه الدعوة ممّا تحقّق إجابة النبي صلى الله عليه وسلم فيها لما علم من حال بن عباس في معرفة التفسير والفقه في الدّين رضي الله تعالى عنه واختلف الشرّاح في المراد بالحكمة هنا فقيل القرآن كما تقدم وقيل العمل به وقيل السنة وقيل الإصابة في القول وقيل الخشية وقيل الفهم عن الله وقيل العقل وقيل ما يشهد العقل بصحته وقيل نور يفرق به بين الإلهام والوسواس وقيل سرعة الجواب مع الإصابة وبعض هذه الأقوال ذكرها بعض أهل التفسير في تفسير قوله تعالى ولقد آتينا لقمان الحكمة والأقرب أن المراد بها في حديث بن عباس الفهم في القرآن.."[3].

إنّه ضمن هذا السياق، وفي هذه المرحلة من تاريخ التفسير حريّ بنا أن نذكّر بتفسير ابن عبّاس[4] وبالمرويات التفسيريّة المأثورة عنه[1]

---

[1] لقد "اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة وهم الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبوموسى الأشعري وعبدالله بن الزبير، ذكر ذلك السيوطي وقال: وأمّا الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم علي بن أبي طالب والرواية عن الثلاثة نزرة جدّا وكان السبب في ذلك تقدّم وفاتهم والمكثرون في التفسير من هؤلاء العشرة أربعة هم علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وأبيّ بن كعب وعبدالله بن عبّاس رضي الله عنهم أجمعين" تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة لعبدالعزيز بن عبدالله الحميدي، جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة، من التراث الإسلامي الكتاب الثالث والخمسون، ص: 6

[2] صحيح البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء رقم: 10، حديث رقم: 140، وقد روى البخاري هذا الحديث من حديث ابن عباس دون قوله "وعلمه التأويل" وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد .

[3] ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، 170/1

[4] " ينسب إلى ابن عباس رضي الله عنه جزء كبير في التفسير. طبع في مصر مراراً باسم : "تنوير المقياس من تفسير ابن عباس" جمعه "أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشافعي". صاحب القاموس المحيط. وابن عباس، كان بحق "ترجمان القرآن" وكان عمر بن الخطاب يثق بتفسيره ويجله، وقد أخذ في بعض المواضع عن أهل الكتاب فيما اتفق القرآن فيه مع التوراة والإنجيل، وذلك في دائرة محدودة. وقد اتهمه الأستاذ جولد زيهر في كتاب "المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن" بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب، ونسج على منواله الأستاذ أحمد أمين في "فجر الإسلام" وتولى الرد

وممّا يثبت ظهور حركة التدبّر والتأويل وإعمال الرأي في فهم القرآن الكريم في عهد الصحابة الكرام، وذلك بالرغم من إحجام بعضهم عن هذا الفعل التفسيريّ والفهم التأويلي خشية الوقوع في الخطأ وإعمال الرأي في المنزّل وفيما هو موقوف وخشية القول في كتاب الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، مثلما أثر عن أبي بكر الصديق حينما سئل عن "الأب" في قوله تعالى: "وفاكهة وأبا"[2] فقال: "أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم"[3]، أقول بالرغم من إحجام بعضهم فإنّه قد أثر عن الصحابة جملة من والمحاولات التأويلية التي تنمّ عن اجتهاد فكريّ وإعمال للرأي واضحين في فهم القرآن الكريم، فقد أثر عن عمر بن الخطاب أنه تساءل عن الآية ذاتها وحاول معرفة كنهها ومدلولها فقال في هذا الإطار: " عرفنا الفاكهة فما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلّف"[4].

لا ريب أن إحجام أبي بكر الصديق عن القول في الآية ومحاولة تفسيرها وتأويلها وإقدام عمر بن الخطاب ليوحي بأن هناك تفاوتا بيّنا بين الصحابة الكرام أنفسهم في الفهم والإدراك وفي تأويل الآيات الكريمة وتفسيرها، وهو أمر يعود إلى مدى تفقّه بعضهم في الدّين وتعلّمه التأويل مقارنة مع الآخرين، يؤكّد حسين الذهبي هذا الواقع فيقول: "ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا فى درجة واحدة بالنسبة لفهم معانى القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما

---

عليهما الأستاذ محمد حسين الذهبي في كتابه "التفسير والمفسرون"، فابن عباس كغيره من الصحابة ما كان يسأل علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عن شيء يمس العقيدة، أو يتصل بأصول الدين أو فروعه، إنما كان يقبل الصواب الذي لا يتطرق إليه الشك في بعض القصص والأخبار الماضية. ويمتاز ابن عباس برجوعه في فهم معاني ألفاظ القرآن إلى الشعر العربي، لمعرفته بلغة العرب وإلمامه بديوانها." الموقع الإلكتروني:
http://membres.multimania.fr/makuielys/2/usultafsir/15.htm

[1] انظر المرجع السابق: تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة لعبدالعزيز بن عبدالله الحميدي.

[2] عبس: 31

[3] ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 296/6 ، مع العلم أن ابن حجر علّق على هذا الحديث وقال فيه: إنه منقطع

[4] المصدر نفسه، 296/6 ، مع العلم أن ابن حجر علّق على هذا الحديث وقال فيه: إنه صحيح.

ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم فى القوة العقلية، وتفاوتهم فى معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون فى معرفة المعانى التى وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة، ولا ضَيْر فى هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدَّع أحد أن كل فرد من أُمَّة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

ومما يشهد لهذا الذى ذهبنا إليه، ..... وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: "كنت لا أدرى ما {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ} حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها"[1].

ويضيف الذهبي في هذا الصدد فيقول: " الحق أن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – كانوا يتفاوتون فى القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع – كما تقدَّم – إلى اختلافهم فى أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون فى العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملِّماً بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن كان يلازم النبى صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا فى قدرتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين فى ذلك اختلافاً عظيماً"[2].

أضف إلى هذا فإن استنباط الصحابة الكرام للأحكام الشرعيّة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بالأساس هو دليل على احتكاكهم بالقرآن ومحاولتهم فهمه وحرصهم على تأويله واستنطاق أبرز معانيه.

إنّه ضمن هذا الأفق الفكري والفضاء العقليّ التأويليّ ظهر أو انبجس التأويل الصوفي محاولا رسم جملة من الملامح والمميّزات الخاصّة به.

---

[1] الذهبي: التفسير والمفسرون، 1/2

[2] المصدر نفسه، 1/2

فلقد ظهر التأويل الصوفي إذن في إطار أخذ فيه التفسير بالرأي وعلم الدراية حظّهما، وفي إطار تأكّد فيه الاعتقاد لدى المفسّرين عموما والصوفية خصوصا بأن للقرآن ظاهرا وباطنا، فكان أن اختصّ بالظاهر علماء التفسير، وبالباطن وبالبحث عن المعاني الخفيّة الكامنة وراء اللفظة القرآنية على اعتبار أن لغة القرآن هي لغة إشارة وإيحاء تكتنز عديد المعاني والضمنيات، فقد اهتمّ بكلّ ذلك الباطنية وأصحاب التأويل وأرباب التصوّف والخاصّة وخاصّة الخاصّة. ولعلّه في هذا المستوى نذكّر بتفسير مقاتل بن سليمان البلخي الذي يعدّ من طبقة أتباع التابعين لأنه قد ولد تقريبا حوالي سنة 75 هجرية، وقد أدرك زمان بعض الصحابة وتوفي سنة 150هـ. وهو أقدم تفسير كامل للقرآن، جمع فيه مقاتل بين النقل والعقل أو بين الرواية والدارية.

أمّا في القرن الثالث فإن الذي شجّع على التأويل وعلى منهجي التدبّر والتفكّر هو ما اصطبغ به التصوّف عموما من نزوع نحو الكلام في مجالي الكشف والمعرفة بالأساس سواء أكان ذلك على مستوى التأليف أو على مستوى العبارات التي أثرت عن القوم إذ ظهر في كلامهم مصطلحات المحبّة والسكر، والصحو، والكشف، والبقاء، والعارف، والأحوال، والمقامات، وغير ذلك وهو ما أكسب التجربة الصوفية بعدا آخر هو البعد النظري والمعرفي والتأمّلي بعد أن كانت مقتصرة على جانبها العملي التعبّدي فحسب، إضافة إلى ذلك فقد ظهرت التقسيمات أو التصنيفات المعروفة: أهل الظاهر والرسوم وأهل الباطن والحقائق/ الشريعة والحقيقة/ ظهورا أسهم في اتّساع الهوّة بالخصوص بين العامّة والخاصّة وبين الفقهاء والصوفية، وفي تكريس الفرق بين علم التفسير وظاهر القرآن من جهة وعلم التأويل وباطن القرآن من جهة أخرى.

مع العلم أن المنحى المعرفي الذي شهده التصوّف في تلك الفترة (القرن الثالث) والذي ساهم في دفع حركة التأويل الصوفي واستكناه المدلولات والمعاني الخفية

للألفاظ كان يعتبر العقل عاجزا عن إدراك المعارف والحقائق العليا والباطنية بما أنّه في نظرهم "عاجز ولا يدلّ إلاّ على عاجز مثله"[1]، وهو كما يقول ابن عطاء "آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية"[2]، علما أن هذه الرؤية الصوفية للعقل لا تعني هدما لبنيانه أو رفضا لقوانينه الرفض التام وإنّما هي رؤية تصبو إلى إرجاع العقل إلى مملكته الخاصّة يقضي فيها بحكمه وحكمته، ومن ثمّة يحظى بالتقدير والاعتبار اللاّزمين، ولعلّ هذا ما جعلهم يعتبرونه أيضا أداة للاستدلال على الحقيقة وآلية أو ملكة تثبّت الصوفي في تجربته وطريقته.

ضمن هذه المرحلة إذن نذكّر بتفسير القرآن العظيم لسهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة 283 هجري، وحقائق التفسير لأبي عبد الرحمان السلمي المتوفّ سنة 412 هجري. وبتفسير القشيري المتوفّى سنة 465 هجري.

ثمّ نزع التصوف عموما والتأويل الصوفي خصوصا بداية من القرن السادس تقريبا نحو المواءمة بين النظر العقلي الفلسفي والذوق الروحي، وبذلك اصطبغ التصوّف بالفلسفة وأخذ التأويل الصوفي بهذا النمط المعرفي السائد حينها في فهم القرآن الكريم وفي استكناه معانيه الخفيّة والغوص في أغواره العميقة، وخصوصا بفلسفة وحدة الوجود التي كان الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي[3] رائدها والتي ترى أن الله والعالم حقيقة واحدة، أي أن الصوفي يعيش حالة وجدانية روحية عالية يفنى فيها عن شهود السّوى وعمّا يحيط به بحيث يكون استغراقه تاما في المحبوب استغراقا

---

[1] الطوسي : اللمع في تاريخ التصوّف الإسلامي، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1421هـ /2001م، ص: 38 / علما أن القولة وردت كإجابة لأبي الحسين النوري حينما سئل بم عرف الله تعالى؟ فقال بالله ولم يقل بالعقل لعجزه.

[2] الكلاباذي : التعرّف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة مصر، الطبعة الأولى 1424هـ /2004م، ص: 63

[3] محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي ، أحد أشهر المتصوفين لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفية "بالشيخ الأكبر" ولذا ينسب إليه الطريقة الأكبرية الصوفية. ولد في مرسية في الأندلس في شهر رمضان الكريم عام 558 هـ الموافق 1164م قبل عامين من وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني وتوفي في دمشق عام 638هـ الموافق 1240م. ودفن في سفح جبل قاسيون. الموقع الإلكتروني: http://ar.wikipedia.org/wiki/

يفنيه عن غيره ويبقيه في الله فلا يرى شيئا إلا ويرى الله فيه، ومن ثمّة يرى الوجود واحدا لا تمايز فيه، يرى الوجود الحق الواحد في حقيقته وذاته الكثير بصفاته وتجلياته، لأنه ما في الوجود إلا الله، ونحن وإن كنا موجودين فإنما كان وجودنا به، علما أن حالة الفناء التي يعيشها الصوفي هي حالة اعتبارية أو نفسيّة ظرفية، وليست حالة حقيقية واقعية أبدية.

وممّا يحسن ذكره في هذا المقام من التفاسير: عرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد الشيرازي المتوفى سنة 666 هجري والتأويلات النجمية لنجم الدين داية وعلاء الدولة السمناني توفي نجم الدين سنة 654 هجري ولم يكمل تفسيره فأكمله علاء الدولة كما يوجد تفسير منسوب لابن عربي المتوفّى سنة 638 هجري. مع العلم أن الممارسة التأويلية الصوفية كانت عامة لا يكاد يخرج عنها شيء حتى العبادات والشعائر كشعائر الحج والصلاة مثل ما هو الحال في الفتوحات المكيّة لابن عربي.

ومع القرن السادس للهجرة أيضا بدأ التصوّف الإسلامي يعرف ظهور الطرقيّة[1] حيث أضحى مرتبطا بها أيّما ارتباط، بل أمسى يعرف من خلالها ويمرّر تعاليمه وآدابه بواسطتها أيضا، ومن ثمّة أصبح التأويل الصوفي يستند كذلك إلى ما يؤثر عن الشيخ من استنباطات وفهوم وإشارات ومن كلام معبّر عنه بلسان الروح في سياق فهم القرآن الكريم وتبيّن معانيه، يقول الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي صاحب الطريقة العلاوية[2] في هذا الصدد: "وعلى هذا فلا تستبعد الكلام الصادر

[1] راجع: الصوفية في نظر الإسلام لسميح عاطف الزين، الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب العالمي، الطبعة الرابعة 1413هـ / 1993م، ص: 541

[2] أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي: هو شيخ الطريقة العلاوية ولد سنة 1291هـ في مدينة مستغانم الجزائرية، خلّف الأستاذ ثروة علمية قيّمة سواء على صعيد العلماء الذين تخرجوا في زواياه، أو الكتب التي صدرت عنه، ... منها ما يقارب ستة عشر مؤلفاً وقد قامت المطبعة العلاوية التابعة لزاويته بنشر تراثه، من هذه الكتب: القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف./ مفتاح الشهود في مظاهر الوجود./ المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية./ الناصر معروف

من العلماء بالله في كتاب الله، وإن لم تصل إليه عقولنا فنحمله من قبيل أحد الوجوه الأربعة، ولا تحسبن هذه الوجوه توجد في كتاب الله من حيث الإجمال كلاّ إنّما هي في كلّ آية وكلمة إن لم نقل في كلّ حرف فالحرف قرآن كما أن عموم الكتاب قرآن..."[1]، وممّا يذكره الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي أيضا في إطار الحديث عن ما يدلّ على أن في القرآن علوما ليست متعاطية فيما بين العموم ويؤكّد بالتالي أهميّة التأويل الصوفي والفهم التدبّريّ للقرآن الكريم: "ولعلّ المتجمّد على الظواهر لا يرى من كتاب الله إلا ما وصل إليه من جهة بضاعته القليلة، وقريحته الكليلة، وينكر ما وراء ذلك ولم يعلم إن ما عرفه من ظاهر الكتاب إلا كمن عرف القشر من اللباب، وما وراء ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهل يعتقد أن ما وصل إليه فهمه هو ما كانت عليه بواطن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الله ؟ كلاّ، وليفتش نفسه إن كان ما أكنه فؤاده أعزّ ممّا تحدّث به فهو على بيّنة من ربه، وإلاّ ما ضاع له أكثر ممّا حصل عليه..."[2].

أمّا في العهود الأخيرة فقد أصبح التأويل الصوفي للقرآن الكريم يبحث أو يتناول ضمن دراسة "العرفان" باعتباره مذهبا فلسفيّا دينيّا يعتمد التأويل والتدبّر والحفر في دلالات الألفاظ ومغازيها الخفيّة، وقد أخذ من الفلسفات القديمة وحاول استثمار

---

في الذب عن مجد التصوف / القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول. / البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور. / مبادئ التأييد. / الرسالة العلوية. / الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد. / دوحة الأسرار في معنى الصلاة على النبي المختار / المنح القدوسية بشرح المرشد المعين على طريقة الصوفية. / ديوان شعر. / الألفية في الفقه المالكي. / الأبحاث العلوية في الفلسفة الإسلامية. / مناهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن. / لباب العلم في تفسير سورة النجم. / نور الإثمد. / مفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر / وقد توفّي سنة 1351هـ ودفن بزاويته في مستغانم، وأقيم عليه مقام يؤمه الزوار من مختلف الأرجاء. الموقع الإلكتروني: http://ar.wikipedia.org/wiki/

[1] المستغانمي (أحمد بن مصطفى العلاوي): البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، المطبعة العلاوية بمستغانم الطبعة الثانية سنة 1995م، 17/1

[2] المستغانمي (أحمد بن مصطفى العلاوي): البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، 20/1

بعض تصوّراتها ومفاهيمها، وباعتباره أيضا نظاما معرفيا ومنهجا خاصّا لاكتساب المعرفة والنظر إلى العالم واتّخاذ موقف منه من أجل الخلاص وعودة الروح إلى عليائها الروحانيّ السرمديّ، أي إلى الموطن الأصلي حيث النعيم والخلود[1].

لكن ما هو جدير بالذكر في هذا المستوى أن البحوث الابستيمولوجيّة التي تعنى بالعرفان في العصور الحديثة عادة ما تطرق أو تتناول أسئلة جوهريّة مهمّة لعلّ أهمّها يتبدّى في: "كيف يمكن للعارف الانتقال من اللفظ إلى المعنى من الظاهر إلى الباطن بدون جسر بدون قرينة ؟ ما الذي يسوّغ تضمين معنى معيّنا لعبارة معيّنة؟ ما الذي يجعل العبارة الواحدة تتّسع لمعاني مختلفة"[2]

لا ريب أن الإحاطة بذلك والوعي بالمنهج الذي يسلكه الصوفية في فهم القرآن الكريم يقتضيان الإحاطة بالسند أو المرجعية الفكريّة والدينيّة المعتمدة لديهم، فضلا عن معرفة الآليات والأساليب التي يستخدمونها في استنطاق اللفظة واستبطان معانيها.

## التأويل الصوفي للقرآن الكريم: سنده ومرجعياته

إنّ ما يميّز التأويل الصوفي عن التفسير البياني للقرآن الكريم، كما سلفت الإشارة هو اعتماده على الذوق والكشف والإلهام والاستنباط والاستغراق في التأمّل مقارنة بالتفسير الذي يستند إلى اللغة وآلياتها في التعبير، وإلى أسباب النزول وجملة الأخبار والأقوال التي تردّ حولها، وإلى النظر والاستدلال وغير ذلك.

ولا ريب أن ذلك الاختلاف في المنطلق والمرجعية المعتمدة يستتبع آليا اختلافا في الأسلوب والمنهج، واختلافا أيضا في النتائج المنتظرة والمعاني الحاصلة، بل واختلافا أيضا في لغة التعبير والاصطلاح عن ذلك، ولعلّه ضمن هذا الأفق نفهم قولة

[1] انظر: الجابري (محمد عابد): بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى يناير 1986م، ص: 258
[2] المرجع نفسه، ص: 297

القشيري في الرسالة حينما قال: "اعلم أنَّ من المعلوم أن كلَّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفردوا بها عمن سواهم، تواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو للوقوف على معانيها بإطلاقها، وهم يستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع من التكلف، أو مجلوبة بضرب من التصرّف، بل هي معان أودعها الله تعالى في قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم"[1].

لقد استخدم الصوفية التأويل في فهم القرآن الكريم في واقع الأمر تبعا لعدد هام من النصوص التي وجدوا فيها خير محفّز على نهج ذلك المسلك التأويليّ في استكشاف القرآن واستنطاق معانيه، وتبعا أيضا لما أدركوه من نتائج ومعان قيّمة حينما خاضوا تجاربهم الروحيّة وحينما عرفوا لذّة الذوق وجمال المعنى. ومن ذلك نجد الآيات الكريمة التالية:

- قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (محمد: 24)"، يقول القشيري في تأويل هذه الآية الكريمة: "أي إن تدَّبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان، وأراحهم من ظلمة التحيرُّ {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}: أقفلَ الحقُّ على قلوب الكفار فلا يُدَاخِلُها زاجرُ التنبيه، ولا ينبسط عليها شعاعُ العلم، فلا يحصل لهم فَهْمُ الخطاب، فالبابُ إذا كان مُقفَلاً . . . فكما لا يدخل فيه شيءٌ لا يخرج منه شيء، كذلك قلوبُ الكفار مقفلةٌ، فلا الكفرُ الذي

[1] القشيري(عبدالكريم): الرسالة القشيريّة في علم التصوّف، دار الجيل بيروت، الطبعة الثانية 1410هـ/1990م، ص: 53.

فيها يَخْرُجُ، ولا الإيمانُ الذي هم يُدْعَوْن إليه يدخل في قلوبهم. وأهلُ الشِّرْكِ والكفرِ قد سُدَّت بصائرهم وغُطِّيَتْ أسرارهم، ولُبِّسَ عليهم وجهُ التحقيق"[1].

- قوله تعالى: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء: 83)"، يقول القشيري أيضا في إطار استخراج جواهر المعاني بدقائق الاستنباط: "...قوله تعالى: { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ } أي لو بَثوا أسرارهم عند من هو (....) ومَنْ هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكال ، وأمدوهم بنور الهداية والإرشاد{ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ } مع أوليائه لهاموا في كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم في الوقت"[2].
- قوله تعالى: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(الحديد: 3)".
- قوله تعالى: "وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (الأنعام: 120)"
- وممّا شجّع الصوفية على هذا النمط من الفهم وأقصد هنا التأويل الصوفي هو القرآن ذاته الذي احتوى آيات متشابهة يحتاج تدبّرها إلى تأويل وتفكّر عميقين من مثل قوله تعالى: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ"[3].
- قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ

---

[1] القشيري: التفسير، 273/7
[2] المصدر نفسه، 91/2
[3] الفتح: 10

ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ(آل عمران7)"

كما اعتمد الصوفية أيضا جملة من الأحاديث النبويّة التي رأوا فيها خير مدعّم على المضيّ قدما في منهج التأويل وتدبّر الآيات وذلك بغض النظر عن مدى صحّتها أو ضعفها، ومن ذلك:

- حدثنا جعفر بن عون ثنا إبراهيم هو الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله قال إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم أن هذا القرآن حبل الله والنور والشفاء النافع عصمه لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم **ولا تنقضي عجائبه** ولا يخلق عن كثرة الرد فأتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم ولكن بألف ولام وميم "[1].
- قال أبو الدرداء رضي الله عنه إنك لن تفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة وان الله عز وجل كلف العباد أن يعرفوه ثم اقتضاهم بعد المعرفة أن يدينوا له فشرع لهم شريعة الحلال والحرام والدين هو الخضوع"[2]
- قال عليه الصلاة والسلام: "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله"[3] (الديلمى عن أبي هريرة).

---

[1] سنن الدارمي: كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، حديث رقم: 3315،وقد علّق الدارمي على الحديث قائلا: إسناده ضعيف لضعف إبراهيم الهجري

[2] الحكيم الترمذي: نوادر الأصول فى أحاديث الرسول،تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، 1992م الأصل التاسع عشر في حقيقة الفقه وفضيلته، 42/1

[3] المتقي الهندي: كنز العمال، كتاب العلم، الباب الأوّل في الترغيب فيه، 324/10 أخرجه الديلمى (210/1، رقم 802)، وضعفه المنذرى (59/1) وعزاه لأبي منصور الديلمى، وأبى عبد الرحمن السلمي في الأربعين التي له في التصوف وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (39/1): رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف بإسناد ضعيف . انظر: جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي، حرف الهمزة، 8056/1

- "عِلْمُ الْبَاطِنِ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحُكْمٌ مِنْ حُكْمِ اللهِ يَقْذِفُهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ"[1]
- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ حَدَّثَنِي أَخِي عَنْ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ"[2].
- وعن عبد الله بن مسعود قال: "من أراد العلم فليثوّر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين"[3]

كما استند الصوفية أيضا إلى أقوال المشائخ وأرباب الأحوال في هذا الشأن واعتبروا ذلك خير دليل على أن مسارهم المعرفي في الاعتبار واستكناه القرآن الكريم والكشف عن معانيه العميقة هو مسار صحيح لا ريب فيه، ومن ذلك:

- قال سهل بن عبد الله رحمه الله: لو أعطي العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى في آية من كتاب الله تعالى من الفهم، لأنه كلام الله تعالى، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه، وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهوم الخلق لأنها محدثة مخلوقة"[4]

---

[1] جلال الدين السيوطي: الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، تحقيق : يوسف النبهاني نشر : دار الفكر – بيروت / لبنان الطبعة : الأولى– 1423هـ – 2003م، حرف العين 219/2، حديث رقم: 7721.

[2] صحيح البخاري، كتاب العلم، باب حفظ العلم رقم: 42، حديث رقم: 117

[3] الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نشر دار الفكر، بيروت – 1412 هـ رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح

[4] الطوسي(سراج الدين): اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ص: 68

- "قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: الراسخون في العلم: هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب، وفي سر السر، فعرّفهم ما عرّفهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص، فاستخرجوا الدر والجوهر، ونطقوا بالحكم. ومنهم من كانت البحار عنده كتفلة فيما شاهد من المستأثرات، يعني مستأثرات العلم الذي استأثر الله تعالى به أنبياءه، وخص بذلك أولياءه وأصفياءه، فغاص بسرّه عند صفاء ذكره وحضور قلبه في بحار الفهم، فوقع على الجوهر العظيم، وهو الذي علم مصادر الكلام من أين، فوقع على العين، فأغناهم عن البحث والطلب والتفتيش"[1]
- ما نسب إلى زين العابدين رضي الله عنه:

"يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسناً

أني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا"[2]

- "والناس إمَّا أصحاب النقل والأثر، وإمّا أرباب العقل والفِكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة، فالذي للناس غيب، فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناسً أهل الاستدلال"[3]
- ما ذكره محي الدين بن عربي في الفتوحات المكية وتمييزه بين قرّاء القرآن الذين نزل على ألسنتهم ولم يتجاوز حناجرهم، وبين القرّاء الذين نزل القرآن على قلوبهم وأفئدتهم ففهموا منه الفهم العرفاني: "...قوله صلى الله عليه

---

[1] الطوسي(سراج الدين): اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ص:72

[2] ابن عجيبة: إيقاظ الهمم شرح متن الحكم87/1

[3] القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوّف،ص: 378

وسلم في حق قوم من التالين أنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم فهذا قرآن منزل على الألسنة لا على الأفئدة وقال في الذوق نزل به الروح الأمين على قلبك فذلك هو الذي يجد لنزوله عليه حلاوة لا يقدر قدرها تفوق كل لذة فإذا وجدها فذلك الذي نزل عليه القرآن الجديد الذي لا يبلى والفارق بين النزولين أن الذي ينزل القرآن على قلبه ينزل بالفهم فيعرف ما يقرأ وإن كان بغير لسانه ويعرف معاني ما يقرأ وإن كانت تلك الألفاظ لا يعرف معانيها في غير القرآن لأنها ليست بلغته ويعرفها في تلاوته إذا كان ممن ينزل القرآن على قلبه عند التلاوة وإذا كان مقام القرآن ومنزله ما ذكرناه وجد كل موجود فيه ما يريد ولذلك كان يقول الشيخ أبو مدين لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد"[1].

- ما ذكره ابن عربي أيضا: "نزول القرآن في قلب المؤمن هو نزول الحق فيه فيكلم الحق هذا العبد من سره في سره وهو قولهم حدثني قلبي عن ربي من غير واسطة"[2].
- قوله ابن عربي أيضا: "فمن وقف مع القرآن من حيث هو قرآن كان ذا عين واحدة أحدية الجمع ومن وقف معه من حيث ما هو مجموع كان في حقه فرقاناً فشاهد الظهر والبطن والحد والمطلع فقال لكل آية ظهر وبطن واحد ومطلع وذلك الآخر لا يقول بهذا والذوق مختلف ولما ذقنا هذا الأمر الآخر كان التنزل فرقانياً فقلنا هذا حلال وهذا حرام وهذا مباح وتنوعت المشارب واختلفت المذاهب وتميزت المراتب وظهرت الأسماء الإلهية"[3]
- ما جاء في الفتوحات المكّية لابن عربي أيضا: "وأمّا كلام الله إذا نزل بلسان قوم فاختلف أهل ذلك اللسان في الفهم عن الله ما أراده بتلك الكلمة أو

---

[1] ابن عربي: الفتوحات المكية، دار صادر بيروت، 94،93/3
[2] المصدر نفسه، 94/3
[3] المصدر نفسه، 94/3

الكلمات مع اختلاف مدلولاتها فكل واحد منهم وإن اختلفوا فقد فهم عن الله ما أراده فإنه عالم بجميع الوجوه تعالى وما من وجه إلا وهو مقصود لله تعالى بالنسبة إلى هذا الشخص المعين ما لم يخرج من اللسان فإن خرج من اللسان فلا فهم ولا علم وكذلك أصحاب الأخذ بالإشارات فإن إدراكهم لذلك في باب الإشارات في كلام الله تعالى خاصة فهم فيه لأنه مقصود لله تعالى في حق هذا المشار إليه بذلك الكلام وكلام المخلوق ما له هذه المنزلة فمن أوتي الفهم عن الله من كل وجه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب وهو تفصيل الوجوه والمرادات في تلك الكلمة ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فكثره لما فيها من الوجوه فمن كان قلبه في كنّ أو كان عليه قفل أو كان أعمى البصيرة أو كان صادياً أو كان على قلبه ران فإن الله قد حال بينه وبين الفهم عن الله تعالى وإن تأوّله ولهذا يتخذ آيات الله هزؤاً ودينه لهو ولعب لعدم فهمه عن الله ما خاطب وخطب به عباده فلهذا قال من لم يفهم لم يوصل إليه شيء"[1].

إن ما يمكن الخلوص إليه من خلال هذه السندات المختلفة أو هذه المرجعيات التي يعود إليها الصوفية في بناء صرحي الفهم والتأويل لديهم، أن للنص القرآني فعلا عند الصوفية أوجها عدّة وهو يحتمل معان كثيرة أيضا هي بمثابة الجواهر والدرر، ويظلّ الحصول عليها مرتبطا بما يمنّ به الله تعالى على عبده حينما يستقيم سرّه ويجلو فؤاده، وحينما يكون أهلا فعلا لتقبّل الأنوار وإشراقات المعارف اللدنيّة، بمعنى آخر يشكّل النص عند الصوفية حقلا معرفيّا زاخرا بالمعاني والكنوز والدرر، ويتوقّف الفوز به والظفر بما يحويه من حكم ودلالات، على حضور القلب وعلى مدى الحفر المعرفي الذي يقوم به العارف وصاحب البصيرة، خاصّة حينما يخوض تجربة

[1] ابن عربي: الفتوحات المكية، 25/4

المعرفة والذوق ويدرك أن الذي يذوق هو الذي يعرف، ومن حرم الذوق فقد حرم خيرا كثيرا.

## آليات التأويل الصوفي للقرآن الكريم و خصوصيّته:

لا ريب أن المرجعية أو السند الذي كان اللبنة الأولى في بناء صرح التأويل الصوفي هو ذاته الذي أسهم في استوائه على سوقه وفي تطوّره وفي نحت الأساليب والآليات المعتمدة، بل وفي رسم ملامحه وخصوصيّته، فما حمله القرآن الكريم مثلا بوصفه خطابا بيانيا منفتحا تتسع عبارته لأكثر من معنى، من آيات اعتبار ودعوات تفكّر وتدبّر كانت بمثابة إشارة الدفع والانطلاق نحو الاعتبار والحفر في معاني الألفاظ والكلمات، وكان أيضا المعتمد الأساس في بلورة نمط الآلية والخصوصيّة المعتمدتين.

ضمن هذا الأفق إذن نشير إلى أن الصوفي متحرّر في فهمه للقرآن الكريم وفي تأويله له، وفي تدبّره وتفكّره فيه، ذلك أنّه لا يستند إلى آلية واضحة ومحدّدة مع جميع الصوفية، ولا يلتزم بقرينة مضبوطة ومعيّنة "والتي هي الدليل بلغة المتكلمين والعلّة بلغة الفقهاء والحدّ الأوسط بلغة المناطقة"[1] الأمر الذي يجعلنا نلفى أنفسنا أمام عدد كبير من التأويلات، وأمام فهوم متعدّدة أيضا تعدّدا يعكس "اختلاف ترجمات العرفانيين للنص الواحد، فكل منهم يأخذ من النص ما يريد بتأويله بالشكل الذي يريد"[2].

ولا ريب أن تعدّد الفهوم والاستنباطات الحاصلة إنّما يعود حقيقة إلى اختلاف المواجد والتجارب والأذواق التي يعيشها الصوفية على تنوّع أحوالهم ومقاماتهم، وإلى الانفلات الموجود على مستوى التحديد والالتزام بمنهج ذوقيّ واضح، وعدم التقيّد بضوابط محدّدة في هذا النسق المعرفيّ أي في عمليّة الاعتبار العرفاني التي تستند

[1] الجابري(محمد عابد): بنية العقل العربي، ص: 311
[2] المرجع نفسه، ص: 312

بالأساس كما قال الجابري إلى منهج المماثلة والمشابهة في العلاقة، أو ما سمّاه بالقياس العرفاني في مقابل القياس البيانيّ والقياس البرهانيّ، إذ يقول في هذا الصدد: "فعلا إن الفعل العقلي أو الآلية الذهنية التي يعتمدها العرفانيون في تأويل الخطاب القرآني سواء على سبيل الإشارة أو على سبيل التصريح هي المماثلة Analogie بين معاني وآراء جاهزة لديهم تشكّل قوام مذهبهم، وبين المعنى الظاهر الذي تعطيه عبارة النص، مماثلة قوامها النظير يذكر بالنظير حسب تعبير ابن الصلاح، ولكن مع المطابقة بين النظيرين إمّا بالاحتفاظ بهما معا مع إعلان التساوي بينهما وإمّا بالاستغناء عن الذي يمثّل الظاهر منهما وإحلال الآخر محلّه"[1].

وممّا هو حقيق بالذكر أيضا في هذا المقام أن آلية التأويل الصوفي التي أنتجت تعدّدا في الفهوم وتنوّعا في الرؤى والدلالات قد استندت أيضا في سياق الاعتبار والفهم والتدبّر إلى جملة من المفاهيم المهمّة أو بالأحرى وظّفت في سياق نحت الأسلوب والآليات الثنائيات التالية: الظاهر/الباطن، الشريعة/الحقيقة، التفسير/التأويل، المحكم/المتشابه في فهم النصّ وتأويل الخطاب، الخطاب القرآني بالأساس، خاصّة وأنّ الصوفية وجدوا جملة من المفاهيم العرفانية والنصوص الدينيّة التي تشجّعهم على ذلك وتثبت حقيقة وجود الظاهر والبيان وحقيقة وجود الباطن والتأويل من مثل قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ"[2]، ومثل قوله تعالى: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[3].

[1] المرجع نفسه، ص: 313
[2] لقمان: 20
[3] الحديد: 3

كما وظفوا أيضا الزوج التنزيل/التأويل ممّا مكّنهم من التمييز "في النص القرآني بين مستويين: مستوى الدلالة اللغوية التي طابقوا بينها وبين الظاهر ومستوى الدلالة الإشارية أو الرمزيّة التي طابقوا بينها وبين الباطن"[1].

وممّا هو حقيق بالذكر في هذا المقام أنّه قد أثيرت مسألة الشطح الصوفي وأبرز المعاني التي يحتويها، وكيفيّة الوصول إلى حقيقتها وإلى أبرز المفاهيم والدلالات التي تكتنزها، على اعتبار أن الشطح يمثّل نصّا مبهما، ونصا بكرا يمكن أن يخضع لقانوني التأويل والفهم التدبّريّ.

أمّا أبرز ملامح التأويل الصوفي وخصوصيّاته فتتجلّى بالأساس في النقاط التالية:

- شمل التأويل عند الصوفية كل المجالات الحياتية، ودائرته متّسعة لا تقتصر على القرآن ونصوص الحديث النبوي الشريف فحسب، وإنّما تتعدّاها إلى كافة نواحي الحياة حتّى العبادات.
- اعتمد التأويل الصوفي على الرمز والإيحاء والإيماء والإشارة على اعتبار أن ذلك يمثّل أسلوبا مميّزا لديهم يحقّق لهم المبتغى ويقرّب المعنى المطلوب، ويدفع كل سوء فهم أو تجنّ من طرف علماء الرسوم.
- لا يستند التأويل الصوفي إلى العقل على اعتباره ملكة محدودة في منظوره بإطاري الزمان والمكان ولا يمكن أن تتجاوز ذلك إلى ما فوق طورها، وهو "عاجز ولا يدلّ إلاّ على عاجز مثله"[2]، وكما يقول ابن عطاء "آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية"[3]، علما أن هذه الرؤية الصوفية للعقل لا تعني رفضا للعقل ولقوانينه وإنّما الهدف من ذلك إرجاع العقل إلى قوانينه ومملكته الخاصّة يقضي فيها بحكمه وحكمته، دون أن يتجنّى على ما فوق طوره ولا يتجنّى عليه أحد، ولا ريب أن هذه النظرة الصوفية للعقل في سياق التأويل

---

[1] الجابري (محمد عابد): بنية العقل العربي، ص: 258

[2] الطوسي : اللمع في تاريخ التصوّف الإسلامي ، ص: 38 / علما أن القولة وردت كإجابة لأبي الحسين النوري حينما سئل بم عرف الله تعالى؟ فقال بالله ولم يقل بالعقل لعجزه.

[3] الكلاباذي : التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 63

تختلف عن نظيرتها الشيعيّة التي تهتمّ بالعقل وتعتبره ركيزة أساسيّة في الفهم والاعتبار والتعمّق في خبايا الألفاظ، وذلك نظرا لتأثّرها بمنهج المعتزلة وبتقديرهم للعقل وأحكامه.

- التأويل الصوفي هو تأويل متحرّر من كلّ الضوابط التفسيريّة المعتادة، ومن قرائن اللغة والمنطق، وذلك انطلاقا من بديهيّة مفادها أن الباطن مجال رحب يكتنز معان زاخرة لا تعدّ ولا تحصى، وصيدها أو الفوز بها لا يعتمد الالتزام بضوابط الظاهر ومقاييسه، فضلا عن ذلك فإن التجارب الصوفية التي يعيشونها والكشوفات والإلهامات التي يشاهدونها تجعلهم يتحرّرون من كل قيد، ويقتنعون أن الخير وصيد المعاني يكمن في التحرّر وعدم الالتزام بالضوابط وفي تضمين المعارف ما يشاؤون.
- التأويل الصوفي وإن كان لا يلتزم بضوابط التفسير العادية ولا بقرائن اللغة والمنطق كما سلف الذكر، إلاّ أنّه يعتمد المماثلة والأشباه والنظائر والتوازي والنظائر، ويعتمد أحيانا القراءة الحرفية واشتقاق الدلالات والمعاني من ذات المفردة، ومن التماثل اللفظي، فنار إبراهيم عليه السلام مثلا تمسي دالّة على العذوبة والنعيم بدلا من الدلالة على العذاب والشقاء.
- إنّه نتيجة لعدم الالتزام بما هو معتاد في التفسير والتبيين فقد سمّى الصوفية أغلب تأويلاتهم وفهومهم للنصوص الدينيّة بكونها إشارات ولطائف وأنظار وأسرار ومستنبطات وهذا دفعا لسوء الفهم وتجنّبا أيضا لتشنيع أهل الظاهر وعلماء الرسوم واتقاء لشرهم وتكفيرهم وتجنّيهم، ولهذا فإننا نجد من أشهر التفاسير الصوفية "لطائف الإشارات" للقشيري. علما أنهم يرون أن لطائفهم وفهومهم وإشاراتهم هي أجدى وأفضل لأنها صحيحة مقارنة بفهوم أهل الظاهر التي تخضع إلى الخطأ والغلط، ثمّ لأن علم الباطن لا يؤدي إلى ذلك لأنه فضائل ومحاسن ومكارم وأحوال وأخلاق ومقامات ودرجات.

لا ريب أن إشارات الصوفية واستنباطاتهم وتأويلاتهم الناجمة عن تجاربهم الروحية المختلفة ومداومتهم الذكر والتلاوة والتأمّل والاعتبار، وعن اعتمادهم آليات خاصّة في التدبّر والفهم تصبو جميعا في واقع الأمر إلى نحت خصوصيّة مميّزة للتصوّف عموما وللتأويل الصوفي خصوصا، وإلى تمتين الصلة بالسند القرآني والسنّي، وذلك من أجل إصباغ الشرعيّة عن مقولاتهم وأطروحاتهم وعن منهجهم الروحي والفكري عموما والذي عادّة ما يتعرّض إلى النقد والاهتزاز والتشنيع.

## الخاتمة والاستنتاجات:

إن ما يمكن الخلوص إليه في هذا السياق الاستنتاجات التالية:

- التأويل الصوفي للقرآن الكريم له تاريخه وهو يمتدّ إلى بدايات الحركة التفسيريّة للقرآن الكريم، وقد ترعرع في رحاب مدرسة الرأي التفسيريّة ثمّ اتّخذ لنفسه خصوصيّة مميّزة خاصّة مع تتالي التجارب والاهتمامات بهذا المجال الروحي والمعرفي.
- لقد اكتسب التأويل الصوفي شرعيّته من النصوص القرآنيّة والحديثيّة ومن أقوال أقطابه وأهل الذكر في هذا الشأن والتي اعتبرها السند المتين والمرجعية الثابتة للمضيّ قدما في هذا المسار المعرفي الفريد، والكشف عن كوامن النصوص الخفيّة واستلهام المعارف والكنوز اللدنيّة.
- استند التأويل الصوفي للقرآن الكريم إلى التجربة الروحية بالأساس واعتبرها المشكاة الأساسية للفهم والمعرفة وصيد المعاني والدلالات الخفيّة، ولذلك يؤكّد أغلب الصوفية على ضرورة تجلية القلب وتطهير النفس وتزكية الروح من أجل الغوص في المعاني وتحصيل المعارف اللدنية والإشراقات الإلهامية التي يحويها القرآن الكريم والتي لا تحصى ولا تعد، وقد قال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه : "لو أعطي العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى في آية من كتاب الله تعالى من الفهم لأنه

كلام الله تعالى وصفته وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى لقلوب أوليائه من فهم كلام"[1]

- يمثّل التأويل الصوفي للقرآن الكريم محاولة للارتفاع بالفهم والإيمان من مستوى الحدود العقلية المجردة ومن مستوى التفسير المعتاد إلى مستوى الفهم الرصين والمعمّق وإلى مستوى آفاق التجربة الروحية العالية.
- لعلّ أبرز ما ميّز التأويل الصوفي هو تحرّره من الضوابط التفسيريّة المعتادة، وتحرّره ذاك هو الذي أمدّه أو أطلعه على بحور من المعاني والكشوفات والمعارف اطّلاعا جعله ينظر إلى المسارات المعرفيّة الأخرى بالقصور وعدم بلوغ المرام المنتظر.
- سرى المنهج التأويلي في جلّ مجالات الثقافة العربية الإسلامية تقريبا –ما عدا فكر أهل الظاهر وثقافتهم– ولم ينفرد الصوفية عن ذلك المسار خصوصا وأنهم قد وجدوا في ذلك المنهج الحلّ الأمثل لتضمين مواجدهم ومعارفهم وأطروحاتهم واستنباطاتهم وللتحرّر أيضا من قيود أهل الظاهر ومن علماء الرسوم الذين عادة ما يختلفون معهم في أغلب الأطروحات الفكريّة.
- لقد هيمن على تأويل القرآن مساران أساسيان أو اتجاهان إثنان أحدهما اتجاه العقل مع أهل الرأي، وهذا يعتبر أن العقل هو الكفيل الأمثل بإدراك حقائق الوحي والوصول إلى مقاصد النص وكوامنه الغزيرة، وثانيهما اتجاه القلب مع أهل الباطن، وإلى هذا ينتمي الصوفية وهذا الاتجاه يرى أن الطريقة الأسلم في فهم النص ومقاصده وأسراره تكون باعتماد التجربة الروحية وتصفية النفس وتطهيرها وتزكيتها وصقل مرآة القلب كي تتجلّى فيها الحقائق والمعارف اللدنية الإلهامية.

[1] الزركشي: البرهان في علوم القرآن 9/1